

قصة زعيم

فصحة بمتدفقي عنان

لا يفلحون . وهنا يوسمهم الزعيم تأنيباً وسخرية ، وتهكماً وإشفاقاً من جهلهم وغباؤهم الوراثة . ثم يفتح الكتاب الذي لا يطلع عليه احد قط ، ويقرأ فيه الحل ، ثم يعلنه على الجميع كأنه يملن نتيجة الامتحان !
ومن المؤسف ، ان تكون الجورود التي يبذلها السويقي افندي في سبيل الشطرنج تجد ججوداً من الكثيرين . فحسن بك خورشيد مثلاً ، لا يكف عن تردده (ان السويقي افندي يحرف مجنون... انه رجل جاهل مغرور... لسنا تلاميذ في كتاب ... انه يزعم كالحويان ...) والبقرى ، يعاكس السويقي افندي من مكانه في آخر المقهى . كما عاكسه التلاميذ الكبار في آخر الفصل من قبل . وقد اعتاد ان يقطع شرح السويقي افندي ، بصرخة مدوية ، صائحاً :

— الجهلاء .. كالهلاء . سواء .. بسواء !

واحياناً يثور السويقي افندي عليه ، فيقف منفعلًا ويوجه كلامه الى العبقري .

— يا حيوان ... يا سكير ... يا ساقط ... اخرس .

فينظر اليه العبقري نظرة مجنون ثم يضحك ضحكة قصيرة ، ويلتفت الى من حوله قائلاً عفو الخاطر :

— لقد بقبق ... الطليثيون .

فيسأله احد الجالسين :

— من هم الطليثيون الذين يبقبقون ؟

فيضحك العبقري ضحكة ساخرة مملحة بالازدراء ويحجب .

— انهم الطليان ... الم تسممهم يبقبقون ايام الحرب في سيدي براني !

والكلمات تخرج من فم العبقري ، كما تخرج خطوط الرسم السريالي من يد الرسامين ، ويحك ان تقبل كلمات العبقري على علاقتها بلا مناقشة ، واذا راجعته فيها ، فلن تنال منه إلا السخرية والازدراء .

في يوم من الايام دخل المقهى ، حسن بك خورشيد ، وهو من الاعيان الاتراك ، الذين يتأقون في ملابسهم وكلامهم ، وانجه من فوره الى حلقة درس السويقي افندي ، وصاح فيه متجدياً :

— عندي لغز شطرنجي ... اتحداك ايها الأستاذ الخطير ان تعرف حله .

واحتقن الدم في وجه السويقي افندي وقال في غضب .

— من انت حتى تتحداني ... هات كل ما عندك من الغاز ، وسأحلها في

خمس دقائق .

وتقدم خورشيد بك من الرقعة واقام عليها القطع ثم قال في فرح صياني :

— هل تستطيع ان تميم الملك الاسود في ثلاث نقلات ؟

وانطلقت الاجابة من فم السويقي افندي كالقذيفة :

— طبعاً !

وانصرف السويقي افندي الى التفكير في اللغز ، وكلها فكر ، ايقن انه قد تورط في مشكلة معقدة لا خلاص منها . وبدأ السويقي افندي

يخس ان كرامته وحياته كمدرس تتأرجح في الميزان . خاصة وان العبقري قد بدأ يفني قائلاً :

لست ادري أهو الاتفاق ام التدبير ، الذي جعل اكبر مدرسة في القطر المصري لتعلم الشطرنج تقوم في شارع (اليدق) .

وهو الشارع الخلفي لدار الاوبرا ، حيث مدخل المثالين والمثلات .. وقبالة هذا المدخل من الناحية الاخرى تقع المدرسة ، او مقهى مخالي القزم اليوناني العجوز . وهو مقهى صغير ضيق يئن من اوجاع الكهولة شاخ فيه كل شيء . ونجر السوس جدرانه الخشبية المتآكلة ، وتهشمت المرايا ، وشغل محامها رهبوم وكلمات ، خطها ابناء الفراعنة المولعون بالكتابة على الجدران .

وفي الستين الاخيرة ، عندما كانت المظاهرات المتتابعة قد هشتت زجاج المقهى كله ، قام الورق المقوى مقام الزجاج ، وألواح الخشب مقام المرايا . وكان المكان لا يسمح بانتشار المناضد فيه . لذلك رصت في صف واحد طويل كأنها منضدة واحدة... وفي الحقيقة ما كانت تدعو الحاجة الى فصل المناضد بعضها عن بعض فرواد المقهى متعارفون ، تجمم كلهم هواية واحدة هي لعب الشطرنج . وهم يلتفون حول الرقعة يتداولون الأفراس والفيلة والوزراء والملوك في ايديهم وكأنهم الاقدار التي تحرك الوجود ، وترسم للمخلوقات سبيلها المكتوب .

ولعل طبيعة اللعبة هي التي جعلت الفرور يصيب بعض اللاعبين ، فيتخذون لأنفسهم مظهر الديكة المزهوة ، وألقاباً ينادون بها بعضهم بعضاً . كالزعيم .. والعبقري .. وبطل الشرق .. ووكيل الزعيم .. والموراتي .

وهم جميعاً من امهر اللاعبين وابرعهم ، تهبط عليهم الوفود من جميع انحاء مصر والقطار العربية ، لتشاهد فئهم . وتسمر معهم في مجلس المرح .

ورواد المقهى خليط نافر من شتى الطبقات والاعمار ، فينهم الفنانون ، وسائق القطار ، والصحافي ، والمحامي ، والطالب ، والطبيب ، والعاطل ، والمزارع . وبالاختصار كل ما يمكن تصوره من طبقات الشعب المختلفة .

وعبد الحميد افندي السويقي ، هو (الزعيم) . وقد كان مدرساً سابقاً للغة الانكليزية في المدارس الابتدائية . ولما احيل على المعاش واظب على التردد على المقهى وحوّله الى مدرسة للشطرنج ، فهو يتأبط كتب الشطرنج يوماً ، ويجلس وسط حلقة الدرس ويفتح كتابه ، ويقم القطع على الرقعة امامه . ثم يمرض ألعاب مشاهير اللاعبين الدوليين ، ويقراً شرح نقلاتهم ويتفرس في وجوه من حوله ، وقد احمر وجهه الابيض السمين ، واهتز شارب الرماذي الكش . وبين فينة واخرى يزعم :

— يا حار .. ألا ترى الفرس مهدداً بالقليل .. يا ولد لا تتمجل الامور ..

اياك ان تمد يدك الى القطع .

وهو لا يطيق ان يناقشه احد . فهو المدرس الذي يمش وسط التلاميذ ، العالم الذي يحيطه الجهلاء . وليس لتلاميذه — وهم رواد المقهى جميعاً بلا استثناء — إلا ان يستمعوا الى الدرس وهم صاغرون .

وأحب الدروس الى قلب السويقي افندي ، هو درس المسائل الشطرنجية ، فهو ينظم القطع في مواقف خاصة ، ثم يملن على تلاميذه في صوت رنان :

— الآن يموت الملك الاسود بعد نقلتين يلعبها الابيض .

ويبذل التلاميذ جهداً عظيماً للوصول الى الحل . وقد يضي وقت طويل وهم



دا شيء جميل - كالدرفيل - هات الفيل - لا.. يا خليل - زلومة طويل -
طويل طويل .

واحس السويفي افندي بأنه المقصود بغناء المبقرى، لأنه كان قد امسك
بالفيل لينقله ممتعداً انه وجد الحل ، ثم اكتشف خطأ ظنه . وزاد احتقان
وجه السويفي افندي ، وكان لا يدير رأسه يئس او يسرة ، ولا ينظر إلا
امامه ، وقد شدد عيناه الى القطع . ومرت ساعات ، وحل موعد الغداء ،
فانصرف من انصرف، وبقي الآخرون يتناولون طعامهم وهم يرقبون السويفي
افندي ، وكان بينهم حسن بك خورشيد ، الذي كان يجاضر رجلاً الى جانبه
عن الشطرنج فيقول :

- المخ اللطيف هو الاساس ... فالأغبياء لا يلعبون الشطرنج ...
تولستوي .. ونابليون .. وهارون الرشيد ... والفريد دي موسيه ...
هم الذين برعوا في لعب الشطرنج .

ثم ادار بصره فيمن حوله وتحنج . ثم صاح في الخادم .
- اعطني كوب ماء .
ثم التفت الى السويفي افندي ، وقال له في رقة وادب مرسول :

- ماذا تشرب يا سويفي بك ؟
وزجر السويفي افندي بكلام غير مفهوم ، ولكن فهم منه انه يرفض ان
يطلب شيئاً ، وعاد الى تفكيره العميق . ومضت ساعات وساعات حتى اقبل
الليل ، وفجأة صاح الزعيم :

- لقد وجدت الحل . ونهض الجميع فجأة والتفوا من حوله ليجدوا
صدق ادعائه، وامسك السويفي افندي ، (الذي كافح هذه الساعات الطوال
ليؤكد زعامته) بالفيل الذي كان قد امسك به من قبل ، ونقله نقلة واحدة
ثم نظر الى خورشيد بك بانتصار وقال « هذا هو الحل » .
وما كاد خورشيد بك يقول ...

- صدقت ... هكذا يموت الملك الاسود .
حتى سقط رأس الزعيم على صدره . فصاح المبقرى ضاحكاً :

- لقد مات الزعيم هو الآخر .

وقال خورشيد بك في ذعر :

- لقد اغمى عليه :

وحاول اثنان انهاض الزعيم . بينما صرخ المبقرى في صاحب المقهى :

- يا محالي الكلب ، هات كوب ماء ... هات نشادر ...

وجعلوا يدلكون يدي الزعيم . وخلموا رباط عنقه ، وفكوا قبضه
والصقوا آذانهم واحداً تلو الواحد بصدرة ، وقد غشيم قلق وحيرة ، حتى
قال احدهم ، ووجهه ابيض كالثلج :

- لقد مات .

واشدت القلق ، وساد الذعر في المقهى . واتصلوا بالاسعاف ، واستدعوا
طبيباً ، ولكن نظرة واحدة الى الزعيم كانت تكفي لمعرفة انه لن ينهض
من نومه هذه المرة ، وتماونوا على حمله ، وارقدوه على المناضد المتلاصقة .
ووقفوا من حوله صامتين .

وكان يقطع الصمت ، صوت بائع يدخل وهو ينادي بأعلى صوته ...
«بيض سيمط وجبنة»... او سائل ينادي «الله... الله يا اسيادي» او ماسح احذية
يضرب صندوقه الخشبي قائلاً ... «تمسح يا بك ...» ولكنهم كانوا يتبينون
جيمعاً حقيقة ما حدث ، فيصمتون ويتأملون في همس وخوف .

وانفجر المبقرى بالبكاء عندما جاء (محالي) بنشفة غطى بها وجه الزعيم ،
وسرت مهمة . وانطلق المبقرى يندب :

- آه يا عبد الرحمن ... آه يا حبيبي .

وكان موقف المبقرى مرهيباً . هل يبكي نتيجة تأثر حقيقي . ام جنون
اطار صوابه ؟ ووقف خورشيد بك عند باب المقهى يفحص ساعته الذهبية في

قلق وقد نبى منشته العاجية على مقدمه داخل المقهى . وجعل يحدث نفسه في غيظ :

- كلهم حيوانات ، لا احترام للوت .. لعله لم يمت بمسد ، ولكنهم
سيخنقونه بهذا التدافع .

و كثرت الاسئلة داخل المقهى :

- أنتر كه هكذا حتى يأتي الاسعاف ؟

- اين يسكن ؟

- الا يعلم احد كيف تتصل بأهله ؟

وكان الزمن لا يمر ، والجنة لم تعد شخصاً كان يجيى بينهم ، ويصبح ،
وينهر ، ويدرس فن الشطرنج ... لقد اصبح شيئاً آخر غير الناس ، انفصل
عنهم ، ولا هم لهم إلا التخلص منه والأسراع بدفته .

كان الزعيم مستلقياً على رخام المناضد البارد ، وقد سقطت كتبه على
الارض ، وداستها الاقدام ... ولكن الزعيم كان قد أكد زعامته قبل
الموت ، بل هو قد استشهد من اجلها ... ولما جاءت سيارة القصر العميني ،
وجله رجال يلبسون الملابس البيضاء . سألوا عن اهله وعنوانه فلم يجيبهم احد
فضوا به ...

وبدأ الباعة يزعمون من جديد ، وكل واحد من رواد المقهى يعود الى
مكانه ، وانصرف بعضهم الى اللعب ، ولكنهم تركوا مقعد الزعيم خالياً لا
يشغلونه ، لأن من كان في المقهى في ذلك المساء ، كان يستشعر في نفسه ان
ضوه المكان اصبح اكثر خفوتاً ، وان الاصوات اقل جلبة ، وان اللاعبين
أقل حركة ، وكان الدنيا تسير على مهل ، كما يسير الجند بخطواتهم البطيئة في
مواكب الحداد ، او كما تستطيل انغام الموسيقى ، اذا عبرت عن الحزن ،
او صورت مرارة الوداع .
القاهرة فتححي غانم